فصل

وأما النفاق: [١]

فالداء العضال [٢] الذي يكون الرجل ممتلئاً [٣] منه ، وهو لا يشعر . فإنه أمر خطر

النفاق

(١) النفاق : النَّفَقُ : سَرَبٌ في الأرض له مخلص إلىٰ مكان ، وهو أيضاً : المسلك النافذ الذي يمكن الخروج منه . انظر : معجم مقاييس اللغة ٢/ ٥٧٢ مادة : نفق .

قال ابن منظور : «والنُّفَقَة والنَّافِقَاء : جحر الضب واليَرْبُوع ، وقيل : النُّفَقة والنافِقاء موضع يرققه اليربوع من جُحره ، فإذا أُتي من قبل القاصِعاء ضرب النافقاء برأسه فخرج ، ونَفِقَ اليربوع وانْتَفَقَ ونفَّقَ خرج منه . ومنه اشتقاق المنافق في الدين ، والنِّفَاقُ بالكسر فِعْلُ المنافق، والنِّفَاق : الدخول في الإسلام من وجه الخروج عنه من وجه آخر . انظر : لسان العرب ١٤/ ٢٤٢مادة : نفق . قال الإمام ابن رجب ـ رحمه الله ـ : «والذي فسره به أهل العلم المعتبرون . أنَّ النفاق في اللغة هو من جنس الخداع والمكر وإظهار الخير وإبطان خلافه . جامع العلوم والحكم»٢/ ٤٨١ .

وفي الاصطلاح : «إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب» انظر : التعريفات ص٢٧١ .

والنفاق يقسم إلىٰ قسمين : أكبر وأصغر كما ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله .

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ في بيان أقسام النفاق : وهو في الشرع يقسم إلىٰ قسمين :

أحدهما : النفاق الأكبر ، وهو أن يظهر الإنسانُ الإيمانَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويبطن ما يُناقض ذلك كلَّه أو بعضه وهذا هو النفاق الذي كان علىٰ عهد النبي ﷺ ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم ، وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار .

والثاني : النفاق الأصغر ، وهو نفاق العمل ، وهو أن يظهر الإنسانُ علانية صالحة ، ويبطن ما يخالف ذلك . انظر : جامع العلوم والحكم ٢/ ٤٨١ .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش ، د زيادة : الباطن .

(٣) في غ : مملياً .

خفي[1] . خفي على الناس ، وكثيراً ما يخفى على من تلبس به . فيزعم أنه مصلح وهو مفسد .

أنواع النفاق

وهو نوعان : أكبر ، وأصغر .

فالأكبر يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل . وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه [2] ورسله واليوم الآخر . وهو في الباطن منسلخ من ذلك [3] مكذب به لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس ، يهديهم بإذنه ، وينذرهم بأسه ، ويخوفهم عقابه .

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين ، وكشف أسرارهم في القرآن ، وجلّى لعباده أمورهم[4] . ليكونوا[5] منها ومن أهلها على حذر . وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول[6] البقرة : المؤمنين ، والكفار ، والمنافقين ... فذكر في المؤمنين أربع آيات . وفي الكفار آيتين . وفي المنافقين ثلاث عشرة آية . لكثرتهم ولعموم [7] الابتلاء بهم . وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله . فإن بلية

---

(١) (خفي) ساقطة من ط .

(٢) (وكتبه) ساقطة من : م .

(٣) في ط زيادة : كله .

(٤) في ح١ : أمرهم .

(٥) في م ، ح٢ : منها .

(٦) في ط ، ح١ زيادة : سورة .

(٧) في ط والجميع سوى ش ، أ : وعموم .

الإسلام بهم شديدة جداً فإنهم منتسبون (١) إليه ، وإلىٰ نصرته وموالاته ، وهم أعداؤه في الحقيقة . يخرجون عداوته في كل قالب . يظن الجاهل أنه عِلم وإصلاح . وهو غاية الجهل والإفساد .

فلله كم من معقل للإسلام (٢) هدموه! وكم من حِصن له قد قلعوا أساسه وخربوه! وكم من علم له قد طمسوه! وكم لواء له (٣) مرفوع قد وضعوه! وكم ضربوا بمعاول الشبهة (٤) في أصول غراسه ليقلعوها (٥)! وكم عَمُّوا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها!

فلا يزال الإسلام (٦) منهم في محنة وبلية . ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية . ويزعمون أنهم بذلك مصلحون ، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف : ٨] .

اتفقوا علىٰ مفارقة الوحي . فهم علىٰ ترك الاهتداء به مجتمعون ، ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[المؤمنون : ٥٣] ، ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ

(١) في ط : لأنهم منسوبون .

(٢) في ط والجميع وسوىٰ أ : قد هدموه .

(٣) (له) ساقطة من ق .

(٤) في ط ، ق : الشبه . وفي غ ، ح١ ، ب : التشبيه .

(٥) في ح١ : ليقتلوها .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش ، أ زيادة : وأهله .

إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام : ١١٢]، ولأجل ذلك ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان : ٣٠].

درست(١) معالم الإيمان(٢) في قلوبهم فليسوا يعرفونها. ودثرت(٣) معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، وأفلت كواكبه(٤) من قلوبهم فليسوا يحبونها(٥)، وكسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم(٦) فليسوا يبصرونها. لم يقبلوا هدىٰ الله الذي أرسل به رسوله، ولم يرفعوا به رأساً، ولم يروا بالإعراض عنه إلىٰ آرائهم وأفكارهم بأساً. خلعوا نصوص الوحي عن سلطنة الحقيقة، وعزلوها عن ولاية اليقين، وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة. فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين(٧). نزلت عليهم نزول الضيف علىٰ أقوام لئام. فقابلوها بغير ما ينبغي لها من القبول والإكرام. وتلقوها من بعيد، ولكن بالدفع في الصدور منها(٨) والأعجاز. وقالوا: ما لك عندنا من عبور – وإن

---

(١) درست: أي امحّت وذهب أثرها. انظر: لسان العرب ٤/ ٣٢٩. مادة: درس.

(٢) في ح٢: القرآن.

(٣) دثرت: دثر الرَّسم، أي: دَرَسَ. انظر: مختار الصحاح ٨٣.

(٤) في ط زيادة: النيرة.

(٥) في د، ح١، ح٢: يحيونها.

(٦) في ب، د، غ، ح١، ح٢، ق، ط زيادة: أفكارهم.

(٧) الكمين: يقال: كَمُن في المكان كموناً: استخفىٰ في مكمن لا يفطن له.
والكمين: اللَّبس أو الغموض في الأمر لا يفطن لموضعه. انظر: لسان العرب، ١٢/ ١٦٠ مادة (كمن)، والمعجم الوسيط ٧٩٩.

(٨) (منها) ساقطة من: ح٢.

كان لابد - فعلىٰ سبيل المجاز[1] . أعدوا لدفعها أصناف العدد وضروب القوانين ، وقالوا - لما حلّت بساحتهم - : ما لنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئاً من اليقين . وعوامّهم قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه خلفنا[2] المتأخرين . فإنهم أعلم بها من السلف الماضين ، وأقوم بطريق[3] الحجج والبراهين ، وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور . ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر ، ولكن صرفوا هممهم إلىٰ فعل المأمور وترك المحظور. فطريقة[4] المتأخرين: أعلم وأحكم . وطريقة السلف الماضين : أجهل ؛ لكنها أسلم[5] .

---

(١) في ط : الاجتياز .

(٢) في ط زيادة : من .

(٣) في ط والجميع : بطرائق .

(٤) في م ، ح٢ ، د ، ق : فطريق .

(٥) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : «ولا يجوز أن يكون الخالفون أعلم من السالفين كما يقوله بعض الأغبياء ، ممن لم يقدر قدر السلف ؛ بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها : من أن طريقة السلف أسلم ، وطريقة الخلف أعلم ، وأحكم . فإن هؤلاء الذين يفضلون طريقة الخلف من المتفلسفة ، ومن حذا حذوهم علىٰ طريقة السلف إنما أتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث ، من غير فقه لذلك ، بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم : ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ [البقرة : ٧٨] وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات ، وغرائب اللغات . فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الإسلام وراء الظهر ، وقد كذبوا علىٰ طريقة السلف ، وضلوا في تصويب طريقة الخلف ، فجمعوا بين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف» . انظر : الحموية الكبرىٰ ضمن مجموع الفتاوىٰ ٥/ ٨ ، ٩ .

أنزلوا نصوص السنة والقرآن، منزلة الخليفة في هذا المكان، اسمه على[1] السكة[2][3]، وفي الخطبة فوق المنابر مرفوع. والحكم النافذ لغيره. فحكمه غير مقبول ولا مسموع.

لبسوا ثياب أهل الإيمان، على قلوب أهل الزيغ والكفران[4]، فالظواهر ظواهر الأنصار. والبواطن قد تحيزت إلى الكفار، فألسنتهم ألسنة المسالمين. وقلوبهم قلوب المحاربين. يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

رأس ما لهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والختر[5]. وعندهم العقل المعيشي: أن الفريقين عنهم راضون. وهم بينهم آمنون ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

قد نهكت[6] أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها، وغلبت القصود السيئة على إرادتهم[7] ونيّاتهم فأفسدتها.

---

(١) في ق: على السلف، وهو خطأ.

(٢) في غ، ب، م، ق: الخسران.

(٣) السكة: حديدة قد كتب عليها، يضرب عليها الدراهم وهي المنقوشة. انظر: لسان العرب ٦/ ٣١٠ مادة: سكك.

(٤) في ب، غ، ح١، ح٢، م، د زيادة: والغل والكفران.

(٥) الختر: الغدر، وقيل: هو الخديعة بعينها، وقيل: هو أسوأ الغدر وأقبحه، وقيل: الفساد يكون ذلك في الغدر وغيره. انظر: لسان العرب ٤/ ٢٣ مادة (ختر).

(٦) النهك: المبالغة في كل شيء. انظر: لسان العرب ١٤/ ٣٠٨، مادة (نهك).

(٧) في ق: آرائهم.

ففسادهم (١) قد ترامىٰ إلىٰ الهلاك ، فعجز عنه الأطباء العارفون ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠] .

من عَلَقت مخالب شكوكهم (٢) بأديم إيمانه (٣) مَزَّقته كل التمزيق (٤) . ومن تعلق شرر فتنتهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق . ومن دخلت شبهات تلبيسهم في مسامعه حالت (٥) بين قلبه وبين التصديق . ففسادهم في الأرض كثير ، وأكثر الناس عنه غافلون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢] .

المتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر ، مبخوس (٦) حظه من المعقول ، والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفاراً . فهمه (٧) في حمل المنقول وبضاعة تاجر الوحي لديهم كاسدة ، وما هو عندهم بمقبول (٨) . وأهل الاتباع عندهم سفهاء، فهم (٩) في خلواتهم ومجالسهم بهم

---

(١) في ح٢ ، م : ففاسدهم .

(٢) في ح١ : شوكهم .

(٣) في ح٢ : إيمانهم .

(٤) في ط ، ق ، د ، : كل تمزيق . وفي ح٢ ، غ م ، ح١ ، ب : كل ممزق .

(٥) في ط ، ب ، غ ، ح١ ، ح٢ ، ق : حال .

(٦) مبخوس: البخس النقص. يقال: بخسه حقه أي نقصه. انظر: مختار الصحاح ١٧ مادة: بخس .

(٧) في غ : فهم .

(٨) في ق : المقبول .

(٩) (فهم) ساقطة من : غ .

يتطيرون[١] [٢] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ١٣] .

لكل منهم وجهان . وجه يلقىٰ به المؤمنين ، وآخر [٣] ينقلب به إلىٰ إخوانه من الملحدين . وله لسانان [٤] . أحدهما يقبله بظاهره المسلمون ، والآخر يترجم به عن سره المكنون ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة : ١٤] .

قد أعرضوا عن الكتاب والسنة استهزاءً بأهلهما [٥] واستحقاراً . وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين فرحاً بما عندهم من العلم - الذي لا ينفع - [٦] استكباراً فتراهم أبداً بالمتمكسين بصريح الوحي يستهزئون ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة : ١٥] .

---

(١) في غ ، ح١ ، ح٢ ، م ، ب ، ق : يطترون .

(٢) يتطيرون : أي يتشاءمون، كما قال تعالىٰ عن قوم صالح ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك﴾ [النمل : ٤٧] أي تشاءمنا ، وقيل للشؤم طائرٌ وطَيرٌ وطِيرَةٌ ؛ لأن العرب كان من شأنها عِيافةُ الطير وزَجرها ، والتطير ببارحها ، ونعيق غُرابها ، وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها ، فسمَّوا الشؤم طيراً وطائراً وطيرة لتشاؤمهم بها .

انظر : لسان العرب ٨/ ٢٤٠ مادة (طير) .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش ، أ : ووجه .

(٤) في ق : لسان .

(٥) في ش ، م : بعلمهما .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش ، أ : لا ينفع الاستكثار منه أشراً واستكباراً .

خرجوا في طلب التجارة البائرة [١] في [٢] الظلمات ، فركبوا مراكب الشبه والشكوك تجري بهم في موج الخيالات [٣] ، فلعبت بسُفنهم [٤] الريح العاصف ، فألقتها بين سفن الهالكين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [البقرة : ١٦] .

أضاءت لهم نار الإيمان ، فأبصروا في ضوئها مواضع [٥] الهدىٰ والضلال . ثم طفئ ذلك النور ، وبقيت نار تأجج [٦] ذات لهب واشتعال ، فهم بتلك النار معذبون . وفي تلك الظلمات يعمهون [٧] ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقر [٨] . فهي لا تسمع منادي الإيمان ، وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمىٰ ، فهي لا تبصر حقائق القرآن ، وألسنتهم بها خرس

---

(١) البائرة : أي الكاسدة والهالكة . انظر : معجم مقاييس اللغة ١/ ١٦٤ ، لسان العرب ١/ ٥٣٥ مادة (بور) .

(٢) في ط والجميع : في بحار الظلمات .

(٣) في غ : في موج كالخيالات .

(٤) في ق : بسفينتهم .

(٥) في ط : مواقع .

(٦) تأجج : الأجج : تلهب النار ، وقد أجَّت تؤج أجيجاً . انظر : مختار الصحاح ٣ مادة أجج .

(٧) في غ : يعمون .

(٨) وقر : الواو والقاف والراء : أصل يدل علىٰ ثقل في الشيء ، والوقر : الثقل في الأذن . انظر : معجم مقاييس اللغة ٢/ ٦٤١ .

عن الحق فهم به (١) لا ينطقون ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة : ١٨] .

صاب(٢) عليهم صيِّب الوحي ، وفيه حياة القلوب والأرواح ، فلم يسمعوا منه إلا رعد التهديد والوعيد والتكاليف التي وضعت (٣) عليهم بالمساء والصباح . فجعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وجدّوا في الهرب. والطلب في آثارهم والصياح . فنودي عليهم علىٰ رؤوس الأشهاد ، وكشفت أحوالهم (٤) للمستبصرين ، وضرب لهم مثلان (٥) بحسب حال الطائفتين منهم : المناظرين (٦) ، والمقلدين (٧) . فقيل : ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة : ١٩] . ضعفت أبصار بصائرهم عن احتمال ما في الصيب من بروق أنواره وضياء معانيه . وعجزت أسماعهم عن تلقي رعود وعوده وأوامره ونواهيه ، فقاموا عند ذلك حيارىٰ في أودية التيه(٨) . لا ينتفع بسمعه السامع ،

---

(١) في م ، أ ، د ، ق : بها .

(٢) صوب : الصّوب نزول المطر يقال : صابه المطر أي مُطِر . والصيِّب : السحاب ذو الصوب انظر : مختار الصحاح ١٥٦ مادة صوب .

(٣) في ط ، د ، ح١ ، ح٢ ، ب ، م ، ق : وظِّفت .

(٤) في ط والجميع سوىٰ ش ، أ : حالهم .

(٥) في غ ، ح٢ : مثلاً .

(٦) في ح١ ، ح٢ ، ق ، د : الناظرين .

(٧) في غ : المقدمين .

(٨) التيه : يقال : تاه في الأرض يتيه تيهاً أي ذهب متحيراً. انظر: مختار الصحاح ٣٤، مادة: تيه.

ولا يهتدي ببصره البصير، ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة : ٢٠].

لهم علامات يعرفون بها مبينة في السنة والقرآن . بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان ، قام بهم - والله - الرياء ، وهو أقبح مقام قامه الإنسان ، وقعد بهم الكسل [1] عما أمروا به من أوامر الرحمن . فأصبح الإخلاص لذلك عليهم ثقيلاً ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء : ١٤٢] .

أحدهم كالشاة العائرة [2] بين المغنمين تعير [3] إلىٰ هذه مرة وإلىٰ هذه مرة ولا تستقر [4] مع إحدىٰ الفئتين ، فهم واقفون بين الجمعين ، ينظرون أيهم أقوىٰ وأعز قبيلاً [5] ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء : ١٤٣] .

---

(١) في غ : الكسلاء .

(٢) العائرة : المترددة الحائرة لا تدري أيهما تتبع ، وتعير : تتردد وتذهب . انظر : النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٢٨ ، ولسان العرب ٩/ ٤٩٢ مادة : عبر ، وفي الحديث : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلىٰ هذه مرة وإلىٰ هذه مرة » . رواه مسلم ٤/ ٢١٤٦ في كتاب صفات المنافقين ح٢٧٨٤ ، والنسائي في سننه ٨/١٢٤ في كتاب الإيمان ، باب قتل المنافق ح ٥٠٣٧ .

(٣) في ط : تَيْعَر .

(٤) في ح١ : ولا يستقر .

(٥) في ط : قليلاً وفي غ : سبيلاً .

يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن ، فإن كان لهم فتح من الله ، قالوا إنا كنا في البواطن معكم(١) ، وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم . وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة(٢) نصيب ، قالوا : ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا(٣) محكم . وأن النسب بيننا قريب؟ فيا من يريد معرفتهم ، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين ، فلا تحتاج(٤) بعده دليلاً ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء : ١٤١] .

يُعجب السامع قول أحدهم(٥) ، لحلاوته ولينه . ويشهد الله على ما في قلبه من كذبه ومينه(٦) ، فتراه عند الحق نائماً ، وفي الباطل واقفاً(٧) على الأقدام . فخذ وصفهم من قول القدوس السلام : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة : ٢٠٤] .

أوامرهم التي يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد ، ونواهيهم

---

(١) في ق : الباطن ، وفي غ : إنا معكم ، وفي ط : ألم نكن معكم .

(٢) في الأصل بالنصرة . وما أثبته من باقي النسخ ولعله أقرب إلى الصواب لغة .

(٣) في الأصل ، ش : بينكم ، وهو خطأ . وما أثبته من ط والجميع سوى ش .

(٤) في ح٢ : يحتاج .

(٥) في ح١ : واحدهم .

(٦) المَيْن : الكذب . انظر : لسان العرب ١٣/ ٢٣٦ مادة (مين) .

(٧) (واقفاً) ساقطة من ط .

عما فيه صلاحهم في المعاش والمعاد، وأحدهم (١) تلقاه بين جماعة أهل الإيمان في الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة : ٢٠٥] .

فهم جنس بعضه يشبه بعضاً . يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه، وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه، ويبخلون بالمال في سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه، كم ذكَّرهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه! وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه! فاسمعوا أيها المؤمنون : ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة : ٦٧] .

إن حاكمتهم إلىٰ صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين . وإن دعوتهم إلىٰ حكم (٢) كتاب الله وسنة رسوله ﷺ رأيتهم عنه معرضين . فلو شهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدىٰ أمداً بعيداً . ورأيتها معرضة عن الوحي إعراضاً شديداً ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء : ٦١] .

فكيف لهم بالفلاح والهدىٰ! بعد ما أصيبوا في عقولهم وأديانهم؟ وأنىٰ لهم التخلص من الضلال والردىٰ! وقد اشتروا الكفر بإيمانهم؟ فما أخسر

---

(١) في ق : واحدهم .

(٢) (حكم) ساقطة من ق .

تجارتهم البائرة وقد (١) استبدلوا بالرحيق المختوم حريقاً ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء : ٦٢] .

نشب (٢) زقوم الشبه والشكوك في قلوبهم ، فلا يجدون له مسيغاً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ [النساء : ٦٣] .

تبّاً لهم ، ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان! وما أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان ، فالقوم في شأن وأتباع الرسول (٣) في شأن . لقد أقسم الله جل جلاله في كتابه بنفسه المقدسة قسماً عظيماً ، يعرف مضمونه أولو البصائر . فقلوبهم منه على وجل (٤) إجلالاً له وتعظيماً فقال تعالى تحذيراً لأوليائه وتنبيهاً على حال هؤلاء وتفهيماً : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء : ٦٥] .

تسبق يمين أحدهم كلامه من غير أن يُعزم (٥) عليه . لعلمه بأن (٦) قلوب أهل

(١) (وقد) ساقطة من ق .

(٢) في ح٢ : نشبت .

(٣) في ح٢ : الرسل .

(٤) في ط ، غ ، ح١ : حذر .

(٥) في ب ، أ ، ح١ ، م ، غ ، ش ، د ، ط : يعترض ، وفي ح٢ ، ق : يُعرض .

(٦) في ب ، غ ، ح١ ، ط : أن .

الإيمان لا تطمئن إليه . فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به وكشف ما لديه. وكذلك[١] أهل الريبة يكذبون ، ويحلفون ليحسب السامع أنهم صادقون[٢] ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون : ٢] .

تباً لهم ! برزوا إلىٰ البيداء[٣] مع ركب الإيمان . فلما رأوا طول الطريق ، وبعد الشقة نكصوا علىٰ أعقابهم ورجعوا ، وظنوا أنهم يتمتعون بطيب العيش ولذة المنام في ديارهم .

فما متعوا به ، ولا بتلك النجعة[٤] [٥] انتفعوا . فما هو إلا أن صاح بهم الصائح ، فقاموا عن موائد أطعمتهم والقوم جياع ما شبعوا . فكيف حالهم عند اللقاء؟ وقد عرفوا ثم أنكروا ، وعموا بعد ما عاينوا الحق وأبصروا ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون : ٣] .

من صفات المنافقين

أحسن الناس أجساماً ، وأحلاهم[٦] لساناً ، وألطفهم بياناً ، وأخبثهم قلوباً ، وأضعفهم جناناً[٧] ، فهم كالخُشُب المسنّدة التي لا تمييز لها[٨] . وقد قلعت من

---

(١) في د : ولذلك .

(٢) في ط ، ح١ ، ح٢ ، ق : زيادة قد .

(٣) البيداء : هي الفلاة . انظر : المعجم الوسيط : ٧٨ مادة : بيد .

(٤) في ط ، غ ، ب ، ح١ ، ح٢ ، ق : الهجعة .

(٥) النجعة : طلاب الكلأ في موضعه ، وفيه إشارة إلىٰ طلبه ولو كان بعيداً . انظر : مختار الصحاح ٢٧٠ مادة : نجع .

(٦) في ط والجميع سوىٰ ش ، أ : وأخلابهم .

(٧) الجنان : بالفتح هو القلب . انظر : مختار الصحاح ٤٨ مادة جنن .

(٨) في ط والجميع سوىٰ أ ، ش : لا ثمر لها .

مغارسها فتساندت إلىٰ حائط يقيمها ، لئلا يطأها السالكون ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون : ٤] .

يؤخّرون الصلاة عن وقتها الأول إلىٰ شَرَق (١) الموتىٰ ، فالصبح عند طلوع الشمس، والعصر عند الغروب، وينقرونها نقر الغراب . إذ هي صلاة الأبدان ، لا صلاة القلوب . ويلتفتون فيها التفات الثعلب ، إذ (٢) يتيقن أنه مطرود مطلوب . ولا يشهدون الجماعة ؛ بل إن صلىٰ أحدهم ففي البيت أو الدكان . وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر ، وإذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان (٣) . هذه معاملتهم للخلق . وتلك معاملتهم

---

(١) الشَرَق : الشجا والغصة . وقد شرق بريقه أي غص به . انظر : الصحاح ٤/ ١٥٠١ . مادة (شرق)١٥٠١ . وفي حديث ابن مسعود الذي رواه مسلم ١/ ٣٧٨ -٣٧٩ في كتاب المساجد، باب الندب إلىٰ وضع الأيدي علىٰ الركب في الركوع ... ، ح٥٣٤ . وفيه : «إنه ستكون عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عن ميقاتها ويخنقونها إلىٰ شَرَقِ الموتىٰ ...» الحديث.
والمراد بشرق الموتىٰ أحد معنيين :
الأول : أنه أراد به آخر النهار ؛ لأن الشمس في ذلك الوقت إنما تلبث قليلاً ثم تغيب .
الثاني : من قولهم شرق الميت بريقه إذا غص به .
والمعنىٰ الذي أراده هنا : أنهم يؤخرون الصلاة حتىٰ لم يبق في الوقت إلا بقدر ما بقي من نفس هذا الذي قد شرق بريقه عند الموت . انظر : النهاية في غريب الحديث ٢/ ٤٦٥ ، ولسان العرب ٧/ ٩٨ مادة (شرق) .

(٢) في ح١ ، ح٢ ، د ، ق : إذا .

(٣) يشير إلىٰ قول النبي ﷺ : «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن

للحق[١]، فخذ وصفهم من أول المطففين، وآخر ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١].

فلا ينبئك عن أوصافهم مثل خبير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة : ٧٣] فما أكثرهم! وهم الأقلون. وما أجبرهم! وهم الأذلون. وما أجهلهم[٢]! وهم المتعلمون[٣] وما أغرهم بالله! إذ هم بعظمته جاهلون ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة : ٥٦].

إن أصاب أهل الكتاب والسنة عافية ونصر وظهور ساءهم ذلك وغمَّهم. وإن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يمحّص به ذنوبهم، ويكفِّر به عنهم سيئاتهم أفرحَهم ذلك وسرَّهم. وهذا يحقق إرثهم وإرث من عداهم، ولا يستوي من موروثه الرسول، ومن موروثهم: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة : ٥٠، ٥١] وقال تعالىٰ في شأن السَّلَفين

كانت فيه خصلة من النفاق حتىٰ يدعها: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر وإذا عاهد غدر». رواه البخاري ١/ ٨٩ في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق (ح٣٤) وفي ٥/ ١٠٧ في كتاب المظالم، باب إذا خاصم فجر (ح٢٤٥٩). ومسلم ١/ ٧٨ في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق (ح٥٨)، وأحمد في مسنده (٢/ ١٨٩).

(١) في ط والجميع سوىٰ م، د: للخالق.

(٢) في ب، د، م: أجلهم.

(٣) في ط: المتعالمون.

المختلفين والحق لا يدفع (١) بمكابرة أهل الزيغ والتخليط ، ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

كره الله طاعتهم (٢) ، لخبث قلوبهم وفساد نياتهم . فثبطهم عنها وأقعدهم ، وأبغض قربهم منه وجوارهم (٣) لميلهم إلىٰ أعدائه . فطردهم عنه وأبعدهم . وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم . وأشقاهم وما أسعدهم . وحكم عليهم بحكم عدل لا مطمع لهم في الفلاح بعده ، إلا أن يكونوا من التائبين . فقال : ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة : ٤٦] ، ثم ذكر حكمته في تثبيطهم وإقعادهم، وطردهم عن بابه وإبعادهم، وأن ذلك من لطفه بأوليائه وإسعادهم، وهو أحكم الحاكمين فقال : ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة : ٤٧] .

ثقلت عليهم النصوص فكرهوها ، وأعياهم (٤) حملها فألقوها عن أكتافهم ووضعوها ، وتفلتت منهم السنن أن يحفظوها فأهملوها ، وصالت عليهم

---

(١) في ط والجميع سوىٰ ش ، أ : لا يندفع .

(٢) في ط ، ح١ ، ح٢ ، ق : طاعاتهم .

(٣) في ط ، ح١ : وجواره .

(٤) في ب ، م ، غ ، ح١ ، ح٢ ، د : أعياهم .

نصوص الكتاب والسنة فوضعوا لها قوانين ، ردوها بها ودفعوها . ولقد هتك الله أستارهم ، وكشف أسرارهم ، وضرب لعباده أمثالهم . وعلم[1] أنه كلما انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم ، فذكر أوصافهم . لأوليائه ليكونوا منها علىٰ حذر ، وبينها لهم . فقال : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد : ٩] .

هذا شأن من ثقلت عليه النصوص ، فرآها حائلة بينه وبين بدعته وهواه . فهي في وجهه كالبنيان المرصوص . فباعها بمحصل من الكلام الباطل . واستبدل منها بالفصوص[2] فأعقبهم ذلك أن أفسد عليهم إعلانهم إسرارهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد : ٢٦-٢٨] .

أسرُّوا سرائر النفاق . فأظهرها الله علىٰ صفحات الوجوه منهم ، وفلتات اللسان ، ووسمهم[3] لأجلها بسيماء لا يخفون بها علىٰ أهل البصائر والإيمان ،

(١) في غ ، د ، م ، ب ، ح١ ، ح٢ : وأعلم .

(٢) لعله بهذا يشير إلىٰ كتاب فصوص الحكم لابن عربي ، وهو يتألف من سبعة وعشرين فصلاً ، والفصوص عرض لقضايا الكون كما يراها ابن عربي من خلال لغة رمزية تحكي عن رقائق الأنبياء وعلاقتها بحقائق الوجود . انظر : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ١/ ١٢٦١ والمتوليات للدكتور حسن زيدان ١٣٦ .

(٣) الوسم : الأثر والمعْلَم ، ووسمت الشيء وسماً أثّرتُ فيه بسمة . واتسم الرجل جعل لنفسه سمة يعرف بها . معجم مقاييس اللغة ٢/ ٦٣١ ، مختار الصحاح ٣٠٠ .

وظنوا أنهم إذ [1] كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا [2] على [3] النقاد [4] والناقد البصير قد كشفها لكم ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد : ٢٩ ، ٣٠] .

فكيف بهم [5] إذا جمعوا ليوم التلاق ، وتجلى الله - جل جلاله - للعباد وقد [6] كشف عن ساق؟ ودعوا إلى السجود فلا يستطيعون ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم : ٤٣] .

أم كيف بهم إذا حشروا إلى جسر جهنم؟ [7] ، وهو أدق من الشعرة [8] وأحدُّ

---

(١) في ق : إذا .

(٢) في ق : رجعوا .

(٣) في ط والجميع سوى ش ، أ : على الصيارف والنقاد .

(٤) في ط ، ب ، ح١ ، ح٢ ، د ، غ ، ق زيادة : كيف .

(٥) (بهم) ساقطة من ط ، ح١ ، ح٢ ، ب .

(٦) (وقد) ساقط من ح٢ .

(٧) المراد به الصراط المضروب على متن جهنم كما قال النبي ﷺ : « ويضرب الصراط بين ظهري جهنم ... » جزء من حديث أبي هريرة رواه البخاري ١٣/ ٤١٩ في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ (ح٧٤٣٧) .

قال ابن أبي العز على قول الطحاوي : « ونؤمن بالبعث ... والصراط » أي ونؤمن بالصراط وهو جسر على جهنم إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط » انظر : شرح الطحاوية ٤٦٩ .

(٨) لم أجد حديثاً يدل على هذا الوصف وإنما ذكره ابن حجر في الفتح ١٣/ ٤٥٤ عن الفضيل

من الحُسام(١) .

وهو دحض مزلة(٢)، مظلم لا يقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطئ الأقدام(٣).

فقسمت بين الناس الأنوار ، وهم علىٰ قدر تفاوتها في المرور والذهاب ،

ابن عياض ثم قال : وهذا معضل لا يثبت وكذلك ذكره عن سعيد بن أبي هلال ثم قال : وهو مرسل أو معضل .

(١) ثبت هذا في حديث ابن مسعود الطويل وفيه : «الصراط كحد السيف دحض مزلة» .
رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٠٨ في كتاب التفسير ، تفسير سورة مريم ح٣٤٢٤ ، وقال صحيح علىٰ شرح الشيخين ولم يخرجاه بهذا اللفظ ووافقه الذهبي ، ورواه الطبراني في الكبير ٩/ ٤١٦ (ح٩٧٦٣) . وذكره الهيثمي في المجمع ١٠/ ٣٤٠ ، وقال رواه الطبراني من طرق ورجال أحدها رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني وهو ثقة ، وصححه الألباني .
انظر : شرح الطحاوية ٤٧٠ .

(٢) دحض مزلة : دحض : أي زلق يقال مكان دحض أي زلق ، وفلان داحض لا ثبات له ولا عزيمة في الأمور . انظر : النهاية في غريب الحديث ٢/ ٣١٠ ، المعجم الوسيط ٢٧٣ . ثبت هذا في الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ وفيه : قلنا يا رسول الله وما الجسر؟ قال: «مدحضة مزلة عليه خطاطيف وكلاليب ومسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء ...» رواه البخاري ١٣/ ٤٢٠ في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالىٰ : ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ (ح٧٤٣٩) ، ومسلم ١/ ١٦٧-١٧١ في كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية(ح١٨٣) .

(٣) كما في حديث ابن مسعود وفيه : «فيعطون نورهم علىٰ قدر أعمالهم وقال : فمنهم يعطىٰ نوره مثل الجبل بين يديه ، ومنهم يعطىٰ نوره فوق تلك ، ومنهم من يُعطىٰ نوره مثل النخلة بيمينه ومنهم من يعطىٰ دون ذلك بيمينه حتىٰ يكون آخر من يعطىٰ نوره علىٰ إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة إذا أضاء قدم قدمه وإذا أطفئ قام . قال : فيمر ويمرون علىٰ الصراط والصراط كحد السيف دحض مزلة ، فيقال لهم : امضوا علىٰ قدر نوركم ... » .

وأعطوا نوراً ظاهراً مع أهل الإسلام ، كما كانوا بينهم في هذه الدار ، يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام ، فلما توسطوا الجسر عصفت علىٰ أنوارهم أهوية النفاق ، فأطفأت ما بأيديهم من المصابيح[1] ، فوقفوا حيارىٰ لا يستطيعون المرور . فضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب ؛ ولكن قد حيل بين القوم وبين المفاتيح ، باطنه - الذي يلىٰ المؤمنين- فيه الرحمة ، وما يليهم من قبله[2] العذاب والنقمة . ينادون من تقدمهم من وفد الإيمان ، ومشاعل الركب تلوح علىٰ بعد كالنجوم ، وتبدو لناظر الإنسان ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ [الحديد: ١٣] لنتمكن في هذا المضيق من العبور فقد طفئت أنوارها، ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور، ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ [الحديد : ١٣] ، حيث قسمت الأنوار . فهيهات الوقوف لأحد في مثل هذا المضمار! كيف يلتمس[3] الوقوف في هذا المضيق؟ وهل[4] يلوي اليوم أحد علىٰ أحد في هذا الطريق[5]؟ فذكّروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم في هذه الدار ، كما يذكّر الغريب صاحب الوطن بصحبته له في الأسفار ﴿أَلَمۡ نَكُن

---

(١) كما في حديث جابر - رضي الله عنه - وفيه : «ويُعطىٰ كل إنسان منهم منافق أو مؤمن نوراً ثم يتبعونه، وعلىٰ جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله ثم يطفأ نور المنافقين ...» رواه مسلم ١/ ١٧٧ في كتاب الإيمان ، باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة فيها (ح١٩١) .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش ، ب : من قبلهم .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش ، غ : نلتمس .

(٤) في ط ، ح١ ، ح٢ ، د : فهل .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش ، م زيادة : وهل يلتفت اليوم رفيق إلىٰ رفيق؟

مَّعَكُمْ﴾ [الحديد : ١٤] نصوم كما تصومون ، ونصلي كما تصلون . ونقرأ كما تقرءون ، ونتصدق كما تتصدقون ، ونحج كما تحجون؟ فما الذي فرق بيننا اليوم ، حتىٰ انفردتم دوننا (١) بالمرور؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الحديد : ١٤](٢) ، كانت ظواهركم معنا ، وبواطنكم مع كل ملحد ، وكل ظلوم كفور ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحديد : ١٤ ، ١٥] .

لا تستطل أوصاف القوم فالمتروك - والله - أكثر من المذكور . كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم ، لكثرتهم علىٰ ظهر الأرض وفي أجواف القبور . فلا خلت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات . وتتعطل (٣) بهم أسباب المعيشات (٤) ، وتخطفهم الوحوش والسباع في الفلوات سمع حذيفة - رضي الله عنه - رجلاً يقول : «اللهم اهلك المنافقين. فقال : يا ابن أخي، لو هلك المنافقون لاستوحشتم في طرقاتكم من قلة [السالك](٥)»(٦) .

---

(١) في ب : عنا .

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش ، أ زيادة : ولكنكم .

(٣) في ح١ ، ح٢ ، د ، ق : وتعطل .

(٤) في ب ، غ ، ح١ ، ط : المعايش .

(٥) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل ، ش وما أثبته من ط وباقي النسخ .

(٦) روىٰ الإمام ابن بطة في كتاب الإبانة ٢/ ٦٩٨ عن أبي البختري قال : قال رجل : اللهم أهلك المنافقين ، فقال حذيفة : لو هلكوا ما أنصفتم من عدوكم ، وروىٰ عن الحسن والشعبي : لولا المنافقون لاستوحشتم في الطرقات .

تالله لقد قطع [١] خوف النفاق قلوب السابقين الأولين . ولعلمهم [٢] بدقِّه [٣] وجلِّه وتفاصيله وجمله . ساءت ظنونهم بأنفسهم [٤] حتىٰ خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين . قال عمر بن الخطاب لحذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنهما ـ : «يا حذيفة نشدتك بالله ، هل سمَّاني لك رسول الله ﷺ منهم؟ فقال [٥]: لا . ولا أُزكي بعدك أحداً» [٦] .

قال ابن أبي مليكة [٧] : «أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه ، ما منهم أحد يقول إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل» ذكره البخاري [٨] وذكر عن الحسن رحمه الله: «ما أمنه إلا منافق . ولا خافه إلا

---

(١) في ق : قلح .

(٢) في ط ، ق : لعلمهم .

(٣) في ب ، ح١ ، أ ، غ ، ح٢ ، م ، د : بدقته .

(٤) في ب ، ع ، أ ، ق : بنفوسهم .

(٥) في ط ، ح١ : قال .

(٦) ذكر نحوه القرطبي في تفسيره ١/ ٢٠٠ .

(٧) هو عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة القرشي التيمي ، الإمام الحجة الحافظ ، حدث عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ ، وابن عمر ، وابن عباس وغيرهم ، كان عالماً مفتياً ، صاحب حديث وإتقان ، ولى القضاء والأذان لابن الزبير ، وكان إمام الحرم وشيخه ، توفي سنة ١١٧ هـ . ترجمته في : السير ٥/ ٨٨ ، تهذيب التهذيب ٥/ ٣٠٦ ، شذرات الذهب ١/ ١٥٣ .

(٨) ذكره البخاري تعليقاً ١/ ١٠٩ في كتاب الإيمان ، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر . ووصله ابن حجر في تغليق التعليق ٢/ ٥٢ ، ورواه البخاري في التاريخ الكبير ٥/ ١٣٧ .

مؤمن»[1] . ولقد ذكر عن بعض الصحابة أنه كان يقول في دعائه : «اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق . قيل : وما خشوع النفاق؟ قال : أن يخشع البدن[2] والقلب غير[3] خاشع لله تعالىٰ»[4] .

ولقد[5] ملئت قلوب القوم إيماناً ويقيناً ، وخوفهم من النفاق شديد . فَهمُّهمْ[6] لذلك ثقيل . وسواهم كثيرٌ منهم لا يجاوز إيمانهُم حناجرَهم ، وهم يدّعون أنه[7] كإيمان جبريل وميكائيل .

زَرْعُ النفاقِ ينبت علىٰ ساقيتين : ساقية الكذب ، وساقية الرياء . ومخرجهما من عينين : عين ضعف البصيرة ، وعين ضعف العزيمة . فإذا تمت هذه الأركان الأربع : استحكم بنيان النفاق[8] ؛ ولكنه بمدارج السيول علىٰ شفا جرف هار . فإذا سال سيل[9] الحقائق ، وعاينوا[10] يوم تبلىٰ السرائر ، وكُشف

---

(١) ذكره البخاري تعليقاً ١/ ١٠٩ في كتاب الإيمان ، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله ...

(٢) في ط والجميع سوىٰ ش : : أن يُرىٰ البدن خاشعاً .

(٣) في ط والجميع سوىٰ ش : وليس بخاشع .

(٤) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم ٢/ ٤٩٠ .

(٥) في ط والجميع سوىٰ ش ، أ : تالله لقد .

(٦) في ط ، ح١ ، ح٢ ، د ، ق : وهمهم .

(٧) في ط والجميع سوىٰ ش : أن إيمانهم .

(٨) في ط والجميع سوىٰ ش : نبات النفاق وبنيانه .

(٩) في ط والجميع سوىٰ ش : فإذا شاهدوا سبل .

(١٠) (وعاينوا) ساقطة من : ط ، ق ، د ، غ .

المستور ، وبُعثر ما في القبور ، وحُصِّل ما في الصدور . تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق ؛ أن حواصله التي حصَّلها كانت كالسراب ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور : ٣٩] . [قلوبهم عن الخيرات[1] لاهية ، وأجسادهم إليها ساعية ، والفاحشة في فجاجهم فاشية ، وإذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن[2] سماعه قاسية ، وإذا حضوا الباطل وشهدوا الزور انفتحت[3] أبصار[4] قلوبهم ، وكانت آذانهم واعية .

فهذه - والله - أمارات النفاق[5] فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية . إذا عاهدوا لم يفوا ، وإن وعدوا أخلفوا ، وإن قالوا لم ينصفوا ، وإن دعوا إلىٰ الطاعة وقفوا ، وإذا قيل لهم تعالوا إلىٰ ما أنزل الله صدفوا[6] ، وإذا دعتهم أهواؤهم إلىٰ أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا . فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان ، والخزي والخسران ، فلا تثق بعهودهم ، ولا تطمئن إلىٰ وعودهم ، فإنهم فيها كاذبون ، وهم لما سواها مخالفون ، ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ

---

(١) في م ، ح٢ : الخير .

(٢) في د ، م ، ق : عند .

(٣) في ب زيادة : به .

(٤) (أبصار) ساقطة من : ب .

(٥) في ط : النفق .

(٦) صدفوا : أي أعرضوا . انظر : مختار الصحاح ١٥١ مادة : صدف .

ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [التوبة : ٧٥ - ٧٧][1] .

* * *

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل ش ، وما أثبته من ط وباقي النسخ .